المحاضرة الخامسة

– وسائل اكتساب الأخلاق :

– يزعم البعض أن الأخلاق لا يتصور تغيرها، لأن الخلق كله فطري ومن جنس الخِلقة.ويمكن الإجابة على هذا التصور بأمور :

أ. أنه ولو صح ذلك لبطلت الوصايا والمواعظ والخطب.

ج. أن تغير خلق البهيمة ممكن، وكم من حيوان نقل من الاستيحاش إلى الاستئناس والسياسة والانقياد كالكلب والفرس الجموح، بل حتى الأسد والنمر والصقر والقرد، وكل ذلك تغيير للأخلاق، فأجدر بالإنسان أن تتغير أخلاقه بالتدريب والرياضة.

ثم إنه لا ريب أن أثقل ما على الطبيعة البشرية تغيير الأخلاق التي طبعت عليها النفس، إلا أن ذلك ليس متعذراً ولا مستحيلاً، بل إن هناك أسبابا عديدة، ووسائل متنوعة يستطيع الإنسان من خلالها أن يكتسب حسن الخلق.

– ومن ذلك ما يلي :

أولاً: سلامة العقيدة :

إن شأن العقيدة عظيم ، وأمرها جلل، فالسلوك (في الغالب) ثمرة لما يحمله الإنسان من فكر، وما يعتقده من معتقد، وما يدين به من دين.و الانحراف في السلوك إنما هو ناتج عن خلل في المعتقد. و قد جاء الربط في كتاب الله بين الكفر وسوء الخلق؛ فقد أخبر الله (تعالى) عن الكافرين و هم في النار فقال : ((مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ* حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)).

أي: قال المجرمون لأصحاب اليمين: الذي أدى بنا إلى الإلقاء في سقر، أننا في الدنيا لم نقم بأداء الصلاة الواجبة علينا، ولم نعط المسكين ما يستحقه من عطاء، بل بخلنا عليه، وحرمناه حقوقه..وكنا (أيضا) في الدنيا نخوض في الأقوال السيئة وفي الأفعال الباطلة مع الخائضين فيها، دون أن نتورع عن اجتناب شيء منها. و أصل الخوض: الدخول في الماء، ثم استعير للجدال الباطل، وللأحاديث التي لا خير من ورائها.

ثانياً: التفكر في الآثار المترتبة على حسن الخلق:

إن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها، من أكبر الدواعي إلى فعلها، وتمثلها، والسعي إليها. فكلما تَصَعَّبَت النفس فذكّرها تلك الآثار، وما تجني بالصبر من جميل الثمار، فإنها حينئذ تلين، وتنقاد طائعة منشرحة، فإن المرء إذا رغب في مكارم الأخلاق، وأدرك أنها من أولى ما اكتسبته النفوس، وأجل غنيمة غنمها الموفقون، سهل عليه نيلها واكتسابها.ويمكنك النظر في آثار أخلاق السلف عليهم في حياتهم وبعد مماتهم.

وانظر كذلك في عواقب سوء الخلق: وذلك بتأمل ما يجلبه سوء الخلق من الأسف الدائم، والهم الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق، فذلك يدعو المرء إلى أن يُقْصِرَ عن مساوئ الأخلاق، وينبعث إلى محاسنها.

ثالثاً: الجليس الصالح والبيئة الصالحة :

فالمرء مولع بمحاكاة من حوله، شديدُ التأثر بمن يصاحبه.ومجالستهم تكسب المرء الصلاح والتقوى، والاستنكاف عنهم تَنَكُّبٌ عن الصراط المستقيم.

قال الله تعالى: ((يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)).و قال تعالى: ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً)).

وعن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة ".

قال النووي: "فيه تمثيله صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ الكير، وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فُجْرُه وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة".

و عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة ".

قال النووي: " قال العلماء: في هذا استحباب مفارقة التائب المواضع التي أصاب بها الذنوب، والأخدان المساعدين له على ذلك ومقاطعتهم ما داموا على حالهم، وأن يستبدل بهم صحبة أهل الخير والصلاح والعلماء والمتعبدين الورعين، ومن يقتدى بهم وينتفَع بصحبتهم ".

وقال ابن حجر: " التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية، والتحول منها كلها ".

رابعاً : القدوة الحسنة :

قال الله تعالى: ((لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً)).

إن القدوة هي أعظم طرق اكتساب الأخلاق، فلا بد للطفل من قدوة في والديه ومدرسته كي يتشرب الأخلاق الإسلامية ويسير على نهجها، ولا بد للكبار من قدوة في مجتمعهم تطبعهم بطابع الإسلام وأخلاقه، ولا بد للمجتمع من قدوة في قيادته بحيث يتطلع إليها ويسير على منوالها، ولا بد أن تكون قدوة الجميع هي شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

خامساً: التدريب العملي والممارسة التطبيقية :

ولا بد في بداية الأمر من تكلف ومجاهدة، وقسر النفس على غير ما تهوى؛ فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلّم، والصبر بالتصبّر، والاستعفاف بالتعفّف.

قال (صلى الله عليه وسلم): ((و من يستعفف يعفّه اللّه ومن يستغن يُغنه اللّه، ومن يتصبّر يُصبِّره اللّه)).